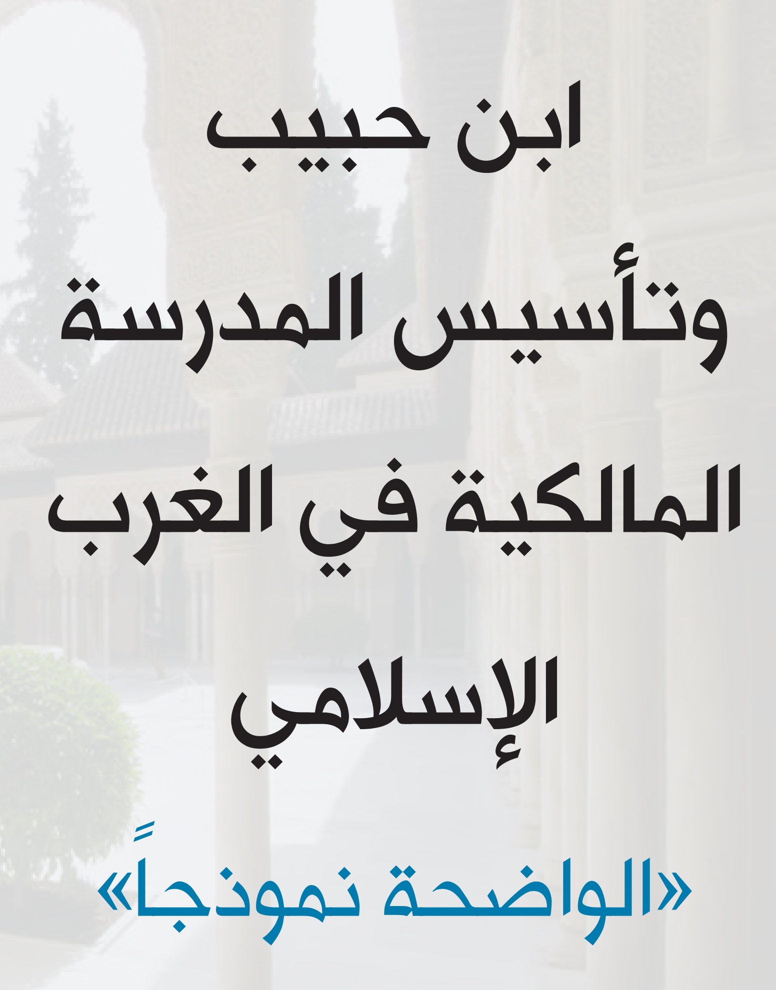



[تاريخية]



ابن حبيب وتأسيس المدرسة المالكية في الغرب الإسلامي

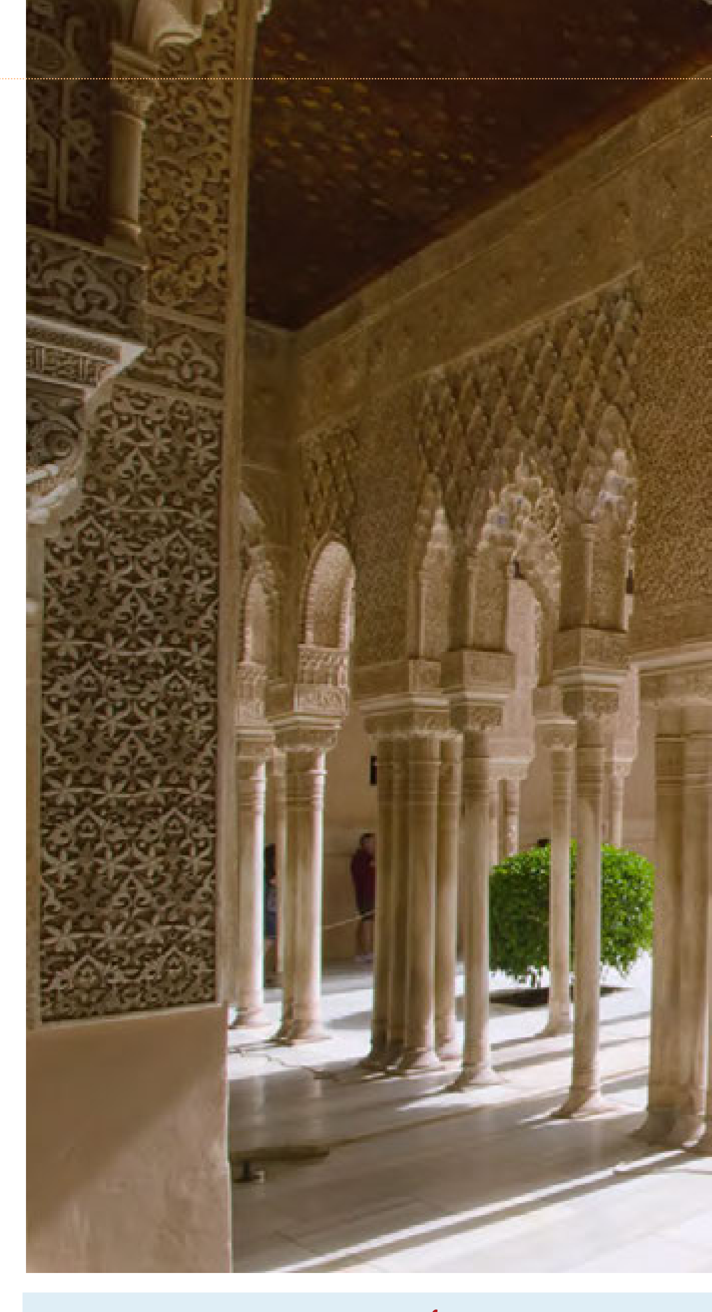
«الواضحة نموذجاً»

د. نورالدين بوكرديد(*)

مقدمة

لقد بلغ ابن حبيب مرتبة الاجتهاد المذهبي وسادت آراؤه الفقهية الأندلس والمشرق، ولقي تراثه الفقهـي إقبالاً وتقديراً عنـد عامة الناس، وترك أثـراً واضحاً في حركة الفقـه المالكي وتطويره عبر العصـور.. فمن هو العلامة ابن حبيب؟ وما التأثير الذي تركه بآرائه ومؤلفاته في رواد الفقه المالكي؟ وما أثر مؤلفاته على حركة الفقه المالكي وتطويره؟

(*) أستاذ في الجامعة الإسلامية بالنيجر.



المبحث الأول: التعريف بابن حبيب

المطلب الأول: الحياة الشخصية

الفرع الأول: مولده ونسبه ونشأته

هو الإمام أبو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن جاهمة بن عباس بن مرداس، السلمي، القرطبي، المالكي، الأندلسي.. لُقِّب بالفقيه الكبير وعالم الأندلس وعالم الدنيا.. ولد سنة ١٧٠هـ، وقيل ١٧٤هـ.. نشأ في القرية التي ولد فيها، وهي البيرة، وكان أبوه يعصر الأدهان ويستخرجها ويقوت عياله منها، ولم يلتفت في حياته إلى ملذات الدنيا وشهواتها[(١)].

(١) تاريخ علماء الأندلس لابن الفارض: ١\٢١٢، ترتيب المدارك للقاضي عياض: ٢\٣٠، معجم البلدان لياقوت الحموي: ١\ ١٩٦، الديباج المذهب لابن فرحون: ص\١٥٤، الأعلام للزركلي: ٤\ ١٥٧.

الفرع الثاني: وفاته

توفي رحمه الله تعالى سنة ٢٣٨هـ، وقيل سنة ٢٣٩هـ، وقيل ٢٣٧هـ، وقد صلى عليه ابنه يحيى، وقيل ابنه محمد، وقيل صلى عليه القاضي أحمد بن زياد، ودُفن في قرطبة بمقبرة أم سلمة في قبلة مسجد الضيافة ورثاه عدد كبير من الشعراء[(٢)].

المطلب الثاني: الحياة العلمية

الفرع الأول: شيوخه وتلامذته

أولاً: شيوخه

أخذ ابن حبيب العلم عن أكابر أصحاب مالك، وقيل إنه لقي مالكاً - رحمه الله تعالى - في آخر عمره، ومن أهم شيوخه:

١- مالك بن أنس: هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الأنصاري، إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة، وهو أشهر من أن نترجم له.

٢- ابن الماجشون: هو عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون التيمي، فارسي الأصل، والماجشون لقب جده أبي سلمة، كان فقيهاً مالكياً فصيحاً، دارت عليه الفتيا في أيامه بالمدينة، توفي سنة ٢١٢هـ[(٣)].

٣- ابن عبد الحكم: هو عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن الليث، فقيه مصري من أجلِّ أصحاب مالك، وكان صديقاً للشافعي.. من مصنفاته: المختصر الكبير، وسيرة ابن عبد العزيز، والمناسك، توفي سنة ٢١٤هـ[(٤)].

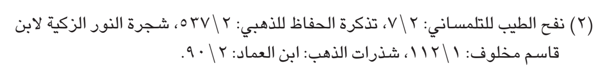
٤- أصبغ: هو أصبغ بن الفرج بن سعد بن نافع مولى عبد العزيز بن مروان، من أهل الفسطاط، فقيه من كبار المالكية بمصر، من تصانيفه: الأصول، وتفسير غريب الموطأ، توفي سنة ٢٢٥هـ[(٥)].

ثانياً: تلامذته

لابن حبيب - رحمه الله تعالى - من التلاميذ جمع كبير، منهم:

١- محمد فطيس: هو أبو عبد الله محمد بن فطيس بن واصل الغافقي البيري المتوفى سنة ٣١٩هـ[(٦)].

٢- مطرف بن عبد الرحمن بن إبراهيم القرطبي يكنى أبا سعيد المتوفى سنة ٢٨٢هـ[(٧)].



(٢) نفح الطيب للتلمساني: ٢\٧، تذكرة الحفاظ للذهبي: ٢\٥٣٧، شجرة النور الزكية لابن قاسم مخلوف: ١\١١٢، شذرات الذهب: ابن العماد: ٢\٩٠.

(٣) الديباج المذهب: ص٢٥٢، الأعلام: ٤\٣٠٥، شجرة النور الزكية: ص٨٥.

(٤) الديباج المذهب: ص٢١٧، الأعلام: ٧\٢٧٢، ترتيب المدارك: ٢\٥٢٣.

(٥) الديباج المذهب: ص١٥٨، الأعلام: ١\٣٣٦، ترتيب المدارك: ٢\٥٦٢.

(٦) تذكرة الحفاظ للذهبي: ٣\٨٠٢، تاريخ علماء الأندلس: ٢\٤٠.

(٧) بغية الوعاة للسيوطي: ص٣٩٢، الأعلام: ٧\٢٥٠.

الفرع الثاني: أهم آثاره ومناقبه

أولاً: أهم آثاره

من أهم مؤلفاتــه في ميدان الفقه الإســلامي ما يلي[١]:
الواضحة: سيأتي الكلام عنه لاحقاً، الفرائض، كراهية الغناء، الجامع من مناسك النبي ﷺ، كتاب الربا، الرُّهون، والحدثان.

ثانياً: مناقبه

قال عنه ابن عبد البر: كان جماعاً للعلم، كثير الكتب، طويل اللســان، فقيه البدن، نحوياً عروضياً شــاعراً، نسابة إخبارياً، وقال نحوه ابن غلبون[٢].

المبحث الثاني: تأثير ابن حبيب في رواد الفقه المالكي

يمكن عزو تأثير ابن حبيب على الحركة الفقهية المالكية إلى عاملين أساسين[٣]:

العامــل الأول: إن جميع فقهاء المذهب المالكي الذين جاؤوا بعد ابن حبيب اعتمدوا أقوالــه واجتهاداته الفقهية وضمَّنوها مؤلفاتهم، واستشــهدوا بها، ما يدل علــى المكانة الفقهية التي حظي بها في تاريخ الفقه المالكي.

العامل الثانــي: نظراً للمكانة التي حظــي بها فقد جعله علماء المذهب محل ثقة فيمــا نقله بإخلاص وأمانة من أقوال الإمــام مالك، كما كانت مؤلفاته التي تداولها العلماء جيلاً بعد جيل شاهداً على الثقة.

إن تأثيــر ابن حبيب في تلامذته ومعاصريه كان ســبباً في أن يلقّــب بألقاب مختلفة كلها تشــهد بقيمته ومزاياه، ومن هذه الألقاب: (فقيــه الأندلس)، (عالم الدنيــا)، وهي ألقاب حميدة لا يتصــف بها إلا مــن حباه الله بالعلم. والســبب في ذلك تنوع اختصاصات ابن حبيب ومشــاركته في جميع العلوم التي جعلت منه رجلاً ذا تأثير قوي وكبير في تلاميذه ومعاصريه، فقد راحوا ينشــرون علمه ومؤلفاته في مصر والعراق والحجاز، وانتشــرت الواضحة شــرقاً وغرباً وتداولها الناس بعده بالدرس والاختصار والرواية عبر قرون عديدة، وذلك لاحتوائها على علم غزير[٤].

كما كان له تأثير كبير في رواد الحركة الفقهية المالكية، حيث نجد معظم الذين جاؤوا بعده ينقلون عنه، ويستدلون باختياراته واجتهاداته في الفقه، وهنا ســأذكر بعض فقهاء المذهب الذين

(١) الديباج المذهب: ص٢٥٥، تاريخ علماء الأندلس: ٢\٣١٣، الأعلام: ٤\١٥٧.
(٢) ترتيب المدارك: ٢\٣٣-٣٤-٣٥.
(٣) مواهب الجليل للحطاب: ١\٣٥.
(٤) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ٢٤٨.

لهم وزنهم وتأثروا به في اجتهاداتهم ومؤلفاتهم، بداية من القرن الرابع الهجري إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري:

١- الخشني (ت ٣٦١هـ): هو أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد الخشــني، من أهم مؤلفاته الفقهية التي ضمَّنها آراء ابن حبيب وفتاويه، كتاب أصــول الفتيا في الفقه على مذهب الإمام مالك[٥].

٢- ابن أبي زيد القيرواني (ت ٣٦٨هـ): هو أبو محمد عبد اللــه ابن أبي زيد القيروانــي، كان إمام المالكية في وقته، وكان يلقب بمالك الصغير، مــن مؤلفاته: النوادر والزيادات، وكذلك كتابه الجامع، حيث اعتمد كثيراً في كتابيه على آراء ابن حبيب من خلال الواضحة[٦].

٣- ابن أبي زمنين (ت ٣٩٩هـ): هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن أبي زمنين القرطبي، من مؤلفاته: تفسير القرآن العظيم، أخذ عن ابن حبيب كثيراً من أقواله[٧].

٤- ابن يونس (ت ٤٥١هـ): هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن يونس التميمــي، الحافظ النظار، من مؤلفاته كتابه الجامع الذي ضمَّنه أقوال وآراء ابن حبيب في الفقه[٨].

٥- ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ): هو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عاصم النمري حافظ المغرب محمد بن عبد البر، انتقد ابن حبيب، ولكنه نقل عنه وعن كتابه الواضحة كثيراً[٩].

٦- أبو الوليد الباجي (ت ٤٧٤هـ): هو سليمان بن خلف بن ســعد بن أيوب بن وارث بن الوليد الباجي الأندلسي القرطبي، مــن مؤلفاته المنتقــى الذي حــوى مجموعة مــن اختيارات واجتهادات ابن حبيب في الفقه[١٠].

٧- القاضــي المالقي (ت ٤٩٧هـ): هو أبــو المطرف عبد الرحمن بن قاســم الشــعبي المالقي، نســبة إلى مالقة جزيرة بالأندلس، من مؤلفاته كتاب الأحكام الذي اعتمد فيه آراء ابن حبيب وأقواله[١١].

٨- ابن رشد (ت ٥٢٠هـ): هو القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشــد القرطبي صاحب البيان والتحصيل والمقدمات المهدات، واعتمد في هذيــن الكتابين خصوصاً على آراء ابن حبيب في الاستدلال[١٢].

(٥) المدارك: ٧\٢٦٦، بغية الملتمس: ص ٧١.
(٦) المدارك: ٧\٢١٥، شجرة النور الزكية: ص٩٦.
(٧) بغية الملتمس: ص٧٧، شجرة النور الزكية: ص ١١١.
(٨) مواهب الجليل: ١\٣٥، شجرة النور الزكية: ص ١١١.
(٩) شجرة النور الزكية: ص ١١٩.
(١٠) طبقات الحفاظ: ص ٣٩-٤٠.
(١١) الصلة لابن بشكوال: ١\٣٢٩.
(١٢) شجرة النور الزكية: ص ١٢٩.

٩- ابن العربي (ت ٥٤٣هـ): هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد المعافري المالكي الأندلسي، أخذ كثيراً عن ابن حبيب في مؤلفاته[(١)].

١٠- القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ): هو عياض بن موسى اليحصبي السبتي، تأثر في منهجه الفقهي بابن حبيب وأورد آراءه في كتبه الفقهية[(٢)].

١١- القاضي المتيطي (ت ٥٧٠هـ): هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، ومتيطة قرية من قرى الأندلس، من مؤلفاته: (النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام)، أخذ كثيراً في هذا الكتاب من آراء ابن حبيب[(٣)].

١٢- ابن شاس (ت ٦١٠هـ): هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن شاس، من مؤلفاته: الجواهر الثمينة في مذهب عالم أهل المدينة، أخذ في كتابه هذا عن ابن حبيب كثيراً[(٤)].

١٣- ابن جزي (ت ٧٤١هـ): هو أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزي الغرناطي الكلبي، له مؤلفات كثيرة، منها: القوانين الفقهية، عزا فيها كثيراً من المسائل الفقهية إلى اختيارات ابن حبيب[(٥)].

١٤- خليل بن إسحاق (٧٧٦هـ): هو خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب المعروف بالجندي ضياء الدين أبو المودة، حامل لواء المذهب المالكي في زمانه بمصر، ألف مختصراً في الفقه، المعروف بمختصر خليل، استفاد كثيراً من ابن حبيب[(٦)].

١٥- ابن فرحون (ت ٧٩٩هـ): هو برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن الشيخ أبي الحسن علي بن فرحون المدني، قاضي المدينة المنورة، من مؤلفاته التي أخذ فيها من آراء ابن حبيب في الفقه تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام[(٧)].

١٦- بهرام (ت ٨٠٥هـ): هو بهرام بن عبد الله بن عبد العزيز بن عمر بن عوص قاضي القضاة في مصر، له تأليف مفيد على مختصر خليل اعتمد فيه كثيراً على أقوال ابن حبيب[(٨)].

١٧- العقباني (ت ٨١١هـ): هو أبو عثمان سعيد بن محمد العقباني التلمساني، له تآليف عديدة، منها: تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، أخذ فيه بأقوال ابن حبيب كثيراً[(٩)].

(١) شجرة النور الزكية: ص ١٣٦.
(٢) الديباج المذهب: ٢\٤٦.
(٣) نيل الابتهاج بتطريز الديباج: أحمد بابا التمبكتي، ص ٣١٦.
(٤) الجواهر الثمينة في عالم المدينة لابن شاس: ١\٣٤-٣٥-٣٦-٣٧-٣٨.
(٥) شجرة النور الزكية: ص ٢١٣.
(٦) شجرة النور الزكية: ص ٢٢٣.
(٧) شجرة النور الزكية: ص ٢٢٢.
(٨) نيل الابتهاج: ص ١٤٧-١٤٩.
(٩) نيل الابتهاج: ص ١٨٩-١٩٠.

١٨- ابن عاصم (ت ٨٢٩هـ): قاضي الجماعة أبو بكر محمد بن عاصم الغرناطي الفقيه الأصولي، أخذ عن ابن حبيب وتأثر باختياراته الفقهية في كتابه المسمى التحفة، الذي وقع عليه القبول واعتمده العلماء وشرحه جماعة منهم[(١٠)].

١٩- الونشريسي (ت ٩١٤هـ): هو أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي التلمساني ثم الفاسي، من مؤلفاته ذات القيمة العالية الفقهية في المذهب المالكي، كتاب المعيار، جمع فيه فتاوى المتقدمين والمتأخرين من فقهاء المذهب المالكي منهم ابن حبيب[(١١)].

٢٠- الحطاب (ت ٩٥٤هـ): هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن الرعيني المعروف بالحطاب، فقيه مالكي أصله من المغرب، ولد واشتهر بمكة، ومات في ليبيا، من مصنفاته: مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، استند في شرحه على كثير من أقوال ابن حبيب[(١٢)].

من خلال ما ذكرنا يكفينا دلالة على قوة تأثير ابن حبيب فيمن جاء بعده من العلماء الذين نقلوا من كتبه واستفادوا من آرائه واجتهاداته. وريادته للمدرسة المالكية في الأندلس جعلت منه عالماً وهب حياته خدمة للعلم وأهله، ما جعل تلاميذه ومعاصريه ورواد المدرسة المالكية شرقاً وغرباً تأثروا بمنهجه الفقهي ونقلوا أقواله، فلا تجد كتاباً واحداً من كتب المذهب المالكي لا يستدل بقول لابن حبيب[(١٣)].

المبحث الثالث: أثر مؤلفات ابن حبيب في حركة الفقه المالكي وتطويره

المطلب الأول: قيمة مؤلفات ابن حبيب في تاريخ الفقه المالكي

تعدّ مؤلفات ابن حبيب، وعلى رأسها الواضحة، من أهم وأبرز المؤلفات الفقهية التي اعتمدها مالكية القرن الرابع الهجري والذين جاؤوا بعدهم، فلا نكاد نجد فقيهاً من فقهاء المذهب المالكي انطلاقاً من ابن أبي زيد القيرواني إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري؛ لا ينقل عن ابن حبيب ولا يستدل بفقهه، سواء تعلق الأمر بآرائه الفقهية المبثوثة في مظان كتب المذهب، أو تعلق الأمر بالواضحة نفسها، أو بما أثر عنه من أحاديث نبوية وأقوال الصحابة والتابعين[(١٤)].

(١٠) شجرة النور الزكية: ص ٢٤٧.
(١١) البهجة للتسولي: ٢\١١٤.
(١٢) توضيح الأحكام للتوزري: ١\٢٠.
(١٣) الديباج المذهب شجرة النور الزكية: ٣٠٤.
(١٤) شجرة النور: ٢\٣٦٥.

ونظـــراً لقيمة مؤلفات ابن حبيب فـــي تاريخ الفقه المالكي خاصـــة وفي تاريـــخ الغرب الإســـلامي عامـــة، فقد حظيت بعناية واهتمام بالغين مـــن طرف العلماء، حيث قاموا بروايتها واختصارها وشـــرحها ونشرها في الأقطار الإسلامية، كمصر والعراق وبلاد الحجاز وغيرها.

ومن الذين تأثروا إلى حـــد كبير بمؤلفات ابن حبيب نجد ابـــن أبي زيد القيرواني الذي جعل كتاب الواضحة مصدراً من مصادر كتابه النوادر والزيادات.

ولقد أصبحـــت مؤلفات ابن حبيب منذ بداية القرن الرابع الهجري إلى وقـــت متأخر، مصدراً ومرجعـــاً لفقهاء المذهب المالكي اعتمدوها وأخذوا بها في مؤلفاتهم(١).

المطلب الثاني: فقه ابن حبيب من خلال الواضحة

عندمـــا يذكر ابن حبيب تذكر معـــه (الواضحة)، لا لكونها كتاباً له من جملة مؤلفاته فقط، بل لكونها كتاباً له وزنه وقيمته الفقهية داخل المذهب المالكي، فالواضحة تشكل إطاراً تطبيقياً لفقـــه ابن حبيب؛ لأنه جمـــع فيها اجتهاداتـــه وآراءه الفقهية ممنهجة ومنسقة بطريقة علمية هادفة.

الفرع الأول: محتوى الواضحة ومصادرها

أولاً: محتوى الواضحة

يحتوي جزء الواضحة الموجود بخزانة القرويين بفاس على ما يلي(٢):

- رغائب الوضوء.
- سنن الوضوء.
- ما يســـتحب من القصد مـــن الوضوء وما يكره من الغلو فيه والسرف.
- العمل في النسيان في الوضوء.
- ما يجوز الوضوء به من الماء وما لا يجوز.
- ما يستحب من السواك عند الوضوء.
- وضوء الجنب إذا أراد النوم وما يجوز للجنب فعله قبل الطهر.
- وضوء من مس القرآن.
- ما يُستحب من العمل في التغوط والتبول.
- ما جاء في الاستنجاء بغير الماء.

هـــذه هي العناوين التي يحتوي عليهـــا جزء الواضحة من مخطوطـــة القرويين، فكلها عناوين تتعلق بالوضوء، ما يفيد أن الجزء الأكبر الخاص ببقيـــة العبادات والمعاملات قد ضاع ولا وجود له.

(١) الصلة لابن بشكوال: ١\٣٣٢.
(٢) الواضحة: ص ٧.

وهـــذا الجزء عبارة عن رواية الســـماع لأنـــه لا مقدمة له تعرفنا بمضمونه على عادة الأقدمين الذين كانوا قبل أن يكتبوا لا بد أن يقدموا لذلك بمقدمة.

كما أنه لا خاتمة له، ولقد كتب في آخر المخطوط: كمل الجزء الأول بحمـــد الله وعونه، وصلى الله على محمد وســـلم، يتلوه في الثاني وضوء الذي يستتكحه المذي أو البول إن شاء الله تعالى(٣).

ثانياً: مصادر الواضحة

من خـــلال الاطلاع علـــى مخطوطة القرويـــين للواضحة، نستشـــف ضمنياً مصادر الكتاب، فابن حبيب استقى معلوماته من فقهاء المذهب المالكي الكبار، ويظهر ذلك في كثرة اســـتدلاله بـــآراء هؤلاء الفقهاء، كما لا ننســـى التأثير الواضح لهؤلاء على حياة ابن حبيب، ويظهر هذا واضحاً في قطعة الواضحة بخزانة القرويـــين، فكثيراً ما يورد ابن حبيب في الواضحة: وحدثني ابن عبد الحكم، وحدثني أسد بن موسى...... ثم يورد استدلالاً آخر في صيغة أخرى: وسمعت ابن الماجشون، وسألت صعصعة.

كما يظهـــر من خلال قطعة الواضحـــة التأثر الكبير لابن حبيـــب بمنهجية الإمام مالك في الموطأ، حيث يوازي الواضحة بالموطأ مـــن خلال عمله بالبلاغات، فكثيـــراً ما يقول: وبلغني عن ابن مســـعود، كما أنه كثيراً ما يستدل بأقوال فقهاء المدينة مـــا يفيد أنه كان متأثراً بعمل أهـــل المدينة أحد مصادر الفقه المالكي، مثل قوله: حدثني عبد العزيز الأويســـي ابن محمد بن الحسن المدنيان(٤).

كما يظهر في قطعة الواضحة أن ابن حبيب يبدي آراءه في كثير من القضايا فـــي قوله: والذي يبدو لي، والذي يظهر لي. كما يغلب على قطعة الواضحة اســـتدلال ابن حبيب بالأحاديث النبوية كقوله فيما يستحب من السواك عند الوضوء: إنه حسن مســـتحب مرغوب فيه كان رسول الله ﷺ يستحبه ويرغب فيه ويقول: (لولا أن أشـــق علـــى أمتي لأمرتهم بالســـواك مع كل وضـــوء)(٥) حدثني بذلـــك ابن عبد الحكم عـــن ابن لهيعة عن الأعرج عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ.

كما يســـتدل بأقوال مالك كقولـــه: ولا بأس أن يجلس في المسجد من ليس على وضوء.

كما يستدل بأقوال الصحابة والتابعين، كقوله: «وبلغني عن ابن مســـعود...، وبلغني أن مسلم بن يســـار الجهني وكان من

(٣) الواضحة: ص ١٣.
(٤) أخرجه مالك في الموطأ عن أبي هريرة: ١\٥٤، والبخاري في كتاب الصوم، باب السواك الرطب واليابس للصائم: ٢\٥٩٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٥) ابن أبي زيد حياته وآثاره: ص ٣٤١.

خيار التابعين كان يقول....».. من خلال ما سبق يمكن القول: إن مصادر الواضحة تتمثل فيما يلي: الكتاب، والسنة، وأقوال مالك، وأقوال الصحابة والتابعين، وأقوال أساتذته.

الفرع الثاني: القيمة الفقهية للواضحة

القيمة الفقهية للواضحة تعدّ كالمدونة بالنسبة للمدرسة الفقهية القيروانية، وكمختصر ابن عبد الحكم بالنسبة للمدرسة الفقهية المصرية، كما كانت المدونة أصل الفقه المالكي في القيروان، فانتفع بها طلاب العلم جيلاً بعد جيل، وانتشرت في الآفاق، وكان لها دور مهم في خدمة فقه المذهب، حيث تكاد تجمع جلّ كتب التراجم والفقه والتاريخ على هذه القيمة، وسنذكر هنا شهادات لبعض العلماء تبين هذه القيمة[1]:

١- قال عنها العتبي: (ومنها الكتب المسماة بالواضحة في السنن والفقه لم ير مثلها).

٢- قال عنها المقري: (الواضحة في مذهب مالك كتاب كبير مفيد).

٣- قال عنها القاضي عياض: (وألف ابن حبيب كتباً كثيرة حساناً في الفقه والتواريخ والأدب، منها الكتب المسماة بالواضحة في الحديث والمسائل على أبواب الفقه).

إن كتاب الواضحة أكسب ابن حبيب شهرة في الأندلس والمشرق، وكان له فضل كبير في انتشار الحركة العلمية المالكية في الغرب الإسلامي خصوصاً، فتهافت على ابن حبيب تلاميذه بروايتها واختصارها، فعرَّفوا بها وبصاحبها، وشهدوا لها بالفضل، واعتبروها مصدراً من مصادر مؤلفاتهم في المذهب المالكي، ومن هؤلاء: ابن أبي زيد القيرواني، وابن رشد، والباجي، والقرافي، والقاضي عياض[2].

وسنرى فيما يلي أهم الذين اختصروا ورووا الواضحة نظراً لأهميتها في المذهب المالكي[3]:

١- يوسف بن يحيى المغامي (ت ٢٨٨هـ).

٢- عبيد الله ولد ابن حبيب (ت ٢٩١هـ).

٣- محمد بن سعيد بن حكم (ت ٣٠٤هـ).

٤- ابن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦هـ).

٥- ابن رشد (ت ٥٢٠هـ).

هؤلاء هم الذين اهتموا بمؤلفات ابن حبيب رواية واختصاراً، وخاصة الواضحة، التي شغلت حيزاً مهماً من مؤلفات ابن حبيب وقلَّ أن نجد فقيهاً من فقهاء المالكية لا يأخذ من الواضحة ولا يشير إليها.

فالواضحة إذن من أمهات الفقه المالكي في الأندلس إلى جانب المدونة والموازية والعتبية والمجموعة، حظيت باهتمام وعناية كبيرة من طرف العلماء، اعتمدوا عليها ونقلوا منها ودرّسوها ونشروها في الأقطار، لكن للأسف الشديد ضاع الجزء الأكبر منها ولم يصلنا منها إلا قطعة صغيرة توجد مخطوطة ومرقونة في خزانة القرويين بفاس في المغرب تحت رقم ٨٠٩، (خاص بقسم الوضوء). والسبب في اندثارها وضياعها يعود إلى عامل الزمن، وكذا تهافت الصليبيين على الكتب الإسلامية وسرقتها في الأندلس إبان سقوطها، فالواضحة لم تحرق لأنه ثبت أنها كانت تدرّس إلى حدود القرن التاسع الهجري، هذا ما أفاد به محقق مقدمة ابن خلدون الدكتور علي عبد الواحد وافي، وهو أن ابن خلدون درَّس واضحة ابن حبيب، كما أن القرافي جعل الواضحة مصدر كتابة الذخيرة، وهو من علماء المذهب في القرن السابع والثامن والتاسع الهجري.

خاتمة

يعدّ ابن حبيب مؤسس المدرسة المالكية في الأندلس، والمتصفحُ لكتب الفقه المالكي القديمة منها والحديثة يدرك مدى تأثيره في رواد الفقه المالكي المتقدمين منهم والمتأخرين بآرائه واجتهاداته ومؤلفاته، كما أنه يتميز بمنهج فقهي دقيق مع قدرته على مواكبة عصره، فضلاً عن اتساع أفقه العلمي وتنوع ثقافته وقدرته على تفريع الأحكام من أصولها وفق أصول المذهب المالكي، وكتابه الواضحة في السنن والفقه خير شاهد على كثرة التفريعات التي سبق بها غيره من علماء المذهب المتقدمين، حيث اهتم بها من جاء بعده وكان لها تأثير كبير في تأصيل المدرسة الفقهية المالكية في الأندلس خصوصاً، والغرب الإسلامي عموماً، وكان لها أثر طيب ودور كبير في نشر الفقه المالكي في المشرق والمغرب منذ القرن الرابع الهجري إلى يومنا هذا.

ملخص البحث باللغة العربية:

للعلامة ابن حبيب مشاركة كبيرة في تأصيل المدرسة الفقهية المالكية في الغرب الإسلامي، فلقد بلغ مرتبة الاجتهاد في المذهب، وسادت آراؤه الفقهية الأندلس والمشرق، ولقي تراثه الفقهي إقبالاً وتقديراً عند الخاص والعام، وتميز بمنهج فقهي دقيق مع قدرته على مواكبة عصره، وترك أثراً واضحاً في حركة الفقه المالكي وتطويره عبر العصور، كما كان له تأثير كبير تركه بآرائه ومؤلفاته في رواد الفقه المالكي، وتعد الواضحة في الفقه والسنن خير شاهد على ذلك.

(١) المدارك: ٤\١٢٧.
(٢) نفح الطيب: ٣\٧١.
(٣) المقدمة: ص٤٥٠.